الأزهـــر المكافح

[ألقيت بجمعية تحفيظ القرآن الكريم بالزقازيق في ١ أكتوبر / تشرين أول سنة ١٩٥٥].

هو السؤددُ الماضي تدقُّ بشائرُهْ ... وتغمـرُنـا أمـجـادُه ومفـاخـرهْ
ذكرتُ به التـاريخَ يـزخرُ نهضـةً ... أضاءت لها في الشرق غُراً منابره
غداةَ سما بالدِّين في مصر صرحهُ ... تفيض على الأكوان علماً زواخره
ألا بـاركَ الـرحمن خـالـدَ ركنـهُ ... فقـد عاش ذخـراً لا تعدُّ مـآثره
تقضَّت عليـه الألف ينشر هـديَهُ ... مـآذنُـهُ مـرفـوعـة ومـنـائـره
فـإن تكن الأهـرامُ آثـار ذاهبٍ ... فهذا الذي لا يرهب الدهرَ عامره

* . * . * . * . *

صحائف مجد ما رأى النيل مثلها ... ولا عهـدتَها في الـزمان غـوابره
بفَيض الهدى والعلم والخير والمنى ... تـدفق ماضيـه وأشـرق حـاضـره
وأصبح للإسلام في الأرض قِبلةً ... على بـابه لا يَـرفه الهـامَ زائـره
فمعقـلَ إرشـاد ومنبـعَ حكمـة ... وبحـرَ علومٍ ليس يُـدرك آخـره
أخو عزمة لم يعرف الدهر مثلها ... وذو صولة في الحق تُخشى بوادره
هل الثورة الأولى[1] سوى صنع كفِّه ... له من قُوى الإيمان فيها ذخائره
أمَـا أرَّقَ المحتـلَّ ليـلاً خـطيبُـه ... وأفزع الاستعمارَ في مصر ثائـره

(١) ثـــورة عـــام ١٩١٩.

وأشعلها حرباً عواناً طحونةً ... يذوق لظاها جيشُه وعساكره
فما كان منصوراً بتأييد حاكمٍ ... ولكنَّ ربَّ الحق بالحق ناصره
عهدناه في ظهر التجبر شوكةً ... يخافُ ظباها فاسدُ الحكم جائره
فكان إذا ما ران للظلمِ غيهبٌ ... ينازلهُ أو تُسْتَقَلَّ[1] دياجره
وكان شجاً في حلقِ كلِ مضلِل ... إلى أنْ نأى عن ساحة الدينِ تاجره
سلِ النيل يوم البأسَ مَن كان حصنه ... يلوذُ بِهِ في خَطبة.. فيؤازرهُ
ومن أعملْت يوم الجهادِ سيوفهُ ... ومن هتفتْ عندَ الفداءِ حناجره
ومن كان إن نامَ الولاةُ على القذى ... تدقُ نواقيسَ الكفاحِ مشاعره
ومن كان عوناً للرئيسِ وصحبهِ ... يؤيدهُ في زحفهِ ويظاهره
سيخبركَ النيلُ اليقينَ فتنثني ... فخوراً بصرحٍ لا تُفَلُّ بواترهْ
وتعلم أنَ المجد نلناهُ يافِعاً ... وكهلاً، فمنّا أهلهُ وعشائره
أثار نفوسَ الحاسدين خلودهُ ... وأزعجهم ألا تلين أواصره
فَكائنْ[2] رأينا حولهُ مِن دسائس ... لِذِي غرض تمتدُ حِقداً أظافره
لقد زعموا أَن الجمودَ طبيعةٌ ... يجاورُها أسلوبهُ وتجاوره
وقالوا حضاراتٌ أتتنا فلم يعدْ ... يسايرُها في ركبهِ وتسايرهُ
أروني جديدَ العلمِ يا قومُ عندَكم ... وكيفَ مجاليهِ؟ وأين محاضره؟
لئن كانَ فيكم من ألَم ببعضِهِ ... فقد غابَ عنكم بين ما غاب سائره
وها نحنُ والتاريخُ ينهض شاهداً ... حماةُ تراثٍ ليس يُدْرَك نادره
أليست حياة الضاد بالأزهرِ الذي ... تظللها أفياؤه وستائره
تدفقَ منهُ النور كالصبحِ مشرقاً ... ورفَّ رفيفُ الروض يختال ناضره
وبات على هديِ الشريعة حارساً ... فما هو إلا قائم الليل ساهره

---

(١) تستقل: ترفع.

(٢) كائن بمعنى كأي التكثير، تفيدها مثل: «كم» ـ قال جرير:

وكائن بالأباطح من صديق ... يراك إذا أصبت هو المصابا

أذاكَ جمـودٌ منـهُ أمْ ذاك واجبٌ ... إذا هـو أداهُ استراحت ضمـائـرهُ
وليس قـديمـاً مـا تجـدَّدَ نفعـهُ ... وليسَ جـديداً مـا تغـرُ مـظاهـره
ويسطعُ ضوء الشمسِ وهي قديمةٌ ... فهلْ كان ضوءُ الكهربـاءِ يناظـره
سكتنا فقالوا: العَيُّ والعجزُ داؤهم ... وأكبرُ ما يُضني من القولِ فاجره
حـذار من الليثِ الكريم، فـإنـهُ ... ليوشكُ أن ينأى عن الحلمِ صابره
أرى غمزات القولِ لم يقصدوا بها ... سوى هدمِهِ والزور لم يخفَ سافره
ومـا علم الجـهـالُ أنَّ زوالـهُ ... سيتـرُك جرحـاً لا يُطبَّب غـائـره
بـاطن هـذا الأمـر للدِّين طعنـةٌ ... وإن كانَ لم يحملْ سوى الخيرِ ظاهره
هو الحصن للإسلامِ يخشاهُ خصمهُ ... إذا ما هوى يـوماً فمـاذا يحاذره
وليس يماري في عظيمٍ جهادهُ.. ... مدى الهدرِ إلا جاحد الفضلِ كافره
ومهمـا أُعِّدتْ حـولهُ مِن مـزالق ... ستعبُـرهـا رايـاتُـه وشعـائِـره
وإن ترمه بالضر يوماً يـدُ امرىء ... فـذلـكَ بيتُ الله والله قـاهـره

* . * . * . *